المحاضرة الثامنة : المصطلح الصوفي

يعجّ معجم الصوفية باصطلاحات خاصة فريدة وكثيرة تصور أحوالهم الوجدانية ، وتعبر عن المقامات والمنازل التي يسلكها المتصوفة في سبيل الوصول إلى المحبة الإلهية، ولذلك كان تعاملهم مع اللغة تعاملا خاصا ، فآثروا ركوب موجة الرمز والغموض ، تعمية وإلغازا على من باينهم في الطريقة ، ورغبة في حفظ أسرارهم على من ليسوا من طبقتهم .

وقد وضح الإمام القشيري هذا المعنى فقال : ‹‹ اعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها ، وقد انفردوا بها عمن سواهم ، كما تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المتخاطبين بها ، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها ، وهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، والستر على من باينهم في طريقتهم ، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب ، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلّف ، أو مجلوبة بضرب من التصرف ، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم ››[1]

وإذا كان الصوفية مختلفين في التجربة الذوقية بحسب استعداداتهم الروحية ، فهم يتفقون في الاصطلاحات ‹‹ فهناك توحد كبير بينهم عبر الأقطار والعصور في نوع المصطلحات المستعملة وعموم معانيها لا يختلفون إلا في مستويات تلك المصطلحات باعتبار التصوف اجتهادا فرديا متنوعا داخل وحدة عرفانية ›› [2]

وهم معروفون بسعة العلم وكثرة الحفظ ، وغزارة أدبهم ؛ الذي لا يقتصر على الشعر أو النثر ، إذ نلفي أدعية وابتهالات وشروحات لأعمالهم وأعمال متصوفة آخرين ، ونجد اجتهادا

[1]) – الإمام القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص21

[2]) – محمد زايد ، أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، 2011 ، ص25

في وضع معاجم صوفية صرفة . " وقد تناول الصوفيون في أدبهم الكثير من دقائق الحكمة والتجربة والفكر والمعاني والأخيلة ، وأعمق مشاعر الإنسان ، وحفل أدبهم بروائع المناجاة والحب الإلهي . ›› [1]

والصوفية استقوا مصطلحاتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية وعلوم الشرع والفقه والتفسير؛ فألفاظ التوكل والتوبة والتقوى والتفكر والتذكر والإنابة والمحاسبة والمحبة والعبادة .. ذكرت في القرآن وفي أحاديث نبينا صلى الله عليه وسلم ، وبذلك تتأكد للباحث الحصيف أصول التصوف الإسلامية ، واعتناقه مبادئ الدين الصحيح القائمة على التوحيد وأداء العبادات ‹‹ وتلاوة القرآن وعبادة الله بالصلاة والصيام وأداء الفرائض والنوافل ودوام ذكر الله وتسبيحه والتأمل في ملكوته والتوبة إليه والتوكل عليه والخلوص له والانقياد والاستسلام الكامل بالقلب ظاهرا وباطنا حتى لا يبقى في القلب موضع لغيره . وإذن فكل ما يزعمه بعض المستشرقين وبعض الباحثين من أنه نشأ بمؤثرات خارجية من بعض النزعات الهندية أو من الفلسفة الأفلاطونية أو من الرهبنة المسيحية أو أن هذه المؤثرات عملت بقوة في نموه ، كل ذلك لا أساس له ››[2]

ومن أهم المصادر، التي تناولت المصطلح الصوفي بالشرح والتفسير والبيان، وأرخت لأعلام الصوفية وأقوالهم وأحوالهم ومجاهداتهم، نذكر:

1 – اصطلاحات الصوفية : للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي

2 – كتاب التعريفات للشريف الجرجاني

3 – التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي

[1]) – محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، ص 66

[2]) – شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ، ص 200

4 – كتاب اللُّمع في التصوف لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي

5 – الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري

6 – كشف المحجوب لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري

7 – عوارف المعارف للسهروردي

8 – معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني

9 – المعجم الصوفي لسعاد الحكيم

10 – المصطلح الصوفي في الإسلام لنظلة الجبوري

وهذه بعض المصطلحات الواردة في شروحات المتصوفة وأسفارهم:

أ– **المقام** : وهو الإقامة ، ومعناه أن يكون مقيما في مقام من مقامات القاصدين ، مثل التوبة والورع والزهد والصبر..يقول الجنيد : لا يبلغ العبد حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد حتى يعبر الأحوال والمقامات [1]

ب – الحال : هو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب..والأحوال مواهب والمقامات مكاسب [2]

ج – الغيبة والحضور: الغيبة: أن يغيب القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق . ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب . **والحضور** : بمعنى يكون حاضرا بالحق ، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى ، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق [3]

د – السُّكر والصحو : السكر : وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء .

---

[1]) – ينظر: نظلة الجبوري ، المصطلح الصوفي في الإسلام ، ط3 ، دار نينوى ، دمشق ،1434 هـ/2013 م ، ص66

[2]) – ينظر : الرسالة القشيرية ، ص23

[3]) – نفسه ، ص33 ، 34

وأما **الصحو** : فهو يعقب السكر، وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ ، فيختار المؤلم من موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم [1]

هـ – الفناء والبقاء : أشار قوم إلى الفناء بسقوط الأوصاف الذميمة ، والبقاء ببروز الأوصاف المحمودة ..، فمن فني عن أوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة ، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة استترت عنه الصفات المحمودة ..فمن فني عن جهله بقي بعلمه ، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته ، ومن فني عن رغبته بقي بزهده ، ومن فني عن أمله بقي بإرادته ، وكذلك القول في جميع تصرفاته . [2]

و – المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة : المحاضرة : حضور القلب ، ثم بعدها **المكاشفة** ، وهي حضوره بنعت البيان ، **والمشاهدة** : هي حضور الحق من غير بقاء تهمة.

وحق المشاهدة عند الجنيد وجود الحق مع فقدانك ، فصاحب المحاضرة مربوط بآياته ، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته ، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته ،وصاحب المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته .[3]

وما هذه المصطلحات سوى غيض من فيض مما تعج به المصادر والمعاجم القديمة من أسماء ومسميات تتصل بعالم الصوفية وتجاربهم الذوقية ، وأحوالهم بين الاستتار والتجلي.

[1]) – ينظر : نظلة الجبوري ، المصطلح الصوفي في الإسلام ، ص91 ،92

[2]) – ينظر : االإمام القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص31 ،32

[3]) – نفسه ، ص 38